زوجي ورفيقي

تساءلت طويلا عما إذا كان من المناسب أن اقدم لك مشاعر تقديري علنا وعلى الملأ. وهذا ليس لكونك لست جديرا بمثل هذا التقدير والإطراء، بل لأنني أعرف انّك طول حياتك كنت تتجاوز وتتعالى عن عبارات الثناء. أجد نفسي عاجزة عن ان أودعك الوداع الأخير دون أن أفعل ذلك. وهذا التكريم ليس موجها إليك لأنك والد أبنائي وشريك حياتي وحسب، بل ايضا لأنك شريك دربي ورفيق نضالي.

أصبحت مهندسا في سن العشرين ومديرا للسدود بجنوب المغرب في الثالثة والعشرين فكان بإمكانك الاكتفاء بهذا الوضع الاجتماعي المريح والتمتع بامتيازاته. لكنّك تنازلت عن كل هذا بدون تردّد، وفضلت الصراع العنيد ضدّ الظلم ومن أجل الحق والحرية والديمقراطية وحفظ كرامة الشعب المغربي وكرامة كلّ الشعوب، وكم كان هذا الصراع قاسيا... ألف مرة ومرة، سنحت لك الفرصة والأسباب المشروعة لكي تتخلّى عن هذا الصراع، لتتفرّغ لحياتك الشخصية والمهنية. لكنّك تابعت طريقك دون تردّد ليس من أجل النفوذ ولا من أجل منصب ما. فالشهرة والوجاهة لم تشكلا البتة جزءا من عالمك، لكن البعض لم يشاؤوا أن يفهموا ذلك. نزيه كما أنت، خضت هذا الصراع خلال الثلاثين سنة التي عشناها معا، دون ان تخل بمبادئك الأساسية لتحقيق أهدافك الشخصية. ومنذ يوليو ١٩٩٦، بدأت تخوض نوعا آخرا من الصراع: الصراع ضدّ المرض. لكن القوّة وعناصر المقاومة التي وجدتها في نفسك وجعلتك تقاوم المرض بمثل هذه الضراوة طيلة هذه الفترة، رغم استفحاله وانتشاره، كلّ هذا سيبقى بالنسبة لي ضربا من ضروب الأسطورة. لقد تابعت نضالك السياسي والتعبير عن آرائك في الوقت الذي كنت تقاوم المرض.

خلال سنين طويلة وعديدة، كنت الى جانبك مناضلة. لكنني في فترة مرضك، كان همّي الوحيد ان أساندك وأن أوفر لك الامكانات اللازمة لمتابعة المعركة السياسية، قدمت لك كلّ هذا كزوجة وأيضا كرفيقة. فطاقاتك في الكتابة وصواب تحليلاتك وسمو مواقفك كانت تقتضي مني كل هذا وأكثر منه بكثير. ولست أدري هل كنت على المستوى اللازم الذي تستحق؟ كلّ ما أعرف هو انني قمت بكل ما قمت به غير مدفوعة بشئ آخر سوى ما كانت تدفعني إليه مشاعري وبدون حساب. ورغم صراعك ضدّ المرض فإن نضالك من أجل الحرية والعدالة واقامة دولة القانون بالمغرب لم يتوقف لحظة، إذ حتى الأسبوع الأخير من حياتك كنت تصحّح كتاباتك التي صدرت يوم ١٦ سبتمبر. لست أدري من أين كنت تستمد كل تلك القوّة، كل ذاك التحكم بالنفس؟ أظن انّه مستمد من ثقتك في اعتقاداتك، ومن صفاء ضميرك. وهذا ما حفظك حتى النهاية، وأبقاك صامدا ضدّ المعاكسات والمرض. ألم تكن تردد دائما :«هناك رجال قد يكون من الممكن تحطيمهم ولكن من المستحيل تركيعهم»؟ نعم لقد كانت حياتك صراعا، وقد أحسه طفليك جيدا، ويريدان ان يطمئنانك بأنّهما يعتبران، كما يعتبر الكل، ان كل ما أبدعت، وتركت في مسارك سيبقى حيّا أبدا، وأنّهما لن يودعانك الوداع الأخير لأنّك ستعيش أبدا في أذهانهم وقلوبهم وأكبادهم. *

*** كان ذلك في سبتمبر ١٩٦٩، في غرونوبل التي كان عبد الغني قد وصلها لتوه، عندما تعرفت عليه. كان قد مضى على انتسابي للاتحاد الوطني للقوات الشعبية عام واحد. لقد قربت بيننا منذ ذلك الحين العواطف والصداقة والرفاقية والأخوة. إلا أن الزواج لم يتم إلا في فبراير ١٩٧٣، بعد أن عدنا ألى الوطن إثر انتهاء دراستنا في غرونوبل. إلا أنه لم يكد ينقضي شهران على زواجنا حتى فرض علينا المنفى. وخلال كل سنوات النضال السري والمنفى، كنا لبعضنا البعض زوجا وزوجة، إلى جانب علاقات الصداقة والرفاقية والأخوة... كنا نشكل ونعيش حياتنا الزوجية التي كانت تتعزز أكثر وأكثر من خلال ولدينا. كيف يمكن وصف وشرح هذا النمط من العلاقات، مثل هذا «التواطؤ»؟ الجواب على ذلك استعيره من هذه العبارة لمونتاني: «لأنه كان هو ولأنني كنت أنا».**